

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الدرس الرابع والثلاثون

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، وعلى آله وصحبه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين اللهم آمين

يقول شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - في كتاب [التوحيد الذي هو حق الله على العبيد]

قال:

باب

قول الله تعالى: { وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } "

وقوله: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ }

وقوله: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ }

وقوله: { وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ }

وعن ابن عباس قال: { حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: { إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا } [رواه البخاري والنسائي].

[الشرح]

قال المصنف - رحمه الله تعالى - :- باب قول الله تعالى: (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين)

علمنا من هذه الترجمة أن المصنف - رحمه الله تعالى - أراد أن يعقد بابا في التوكل كما كان قد عقد بابا في المحبة، وبابا في الخوف فهذا باب في التوكل،

◊ فمناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد ظاهرة

إذ أن التوكل عبادة قلبية لا يجوز صرفها لغير الله - عز وجل - فناسب إيراد هذا الباب في كتاب التوحيد لأن مقام التوكل من أعظم مقامات السالكين

ترجم المصنف - رحمه الله - بهذه الآية العظيمة وهي:

﴿ قول الله تعالى: (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين): ﴾

هذه الآية وردت في مقالة موسى - عليه السلام - لقومه حينما أمرهم أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لهم فتلكؤوا ووعظهم فقال: "وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين" إذ أن القوم تعللوا بأن فيها قوما جبارين وأنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، لكنه أمرهم بالتوكل على الله - عز وجل -

﴿ فما هي حقيقة التوكل؟ ﴾

التوكل هو اعتماد القلب على الله - عز وجل - في جلب المصالح، ودفع المفسد مع فعل الأسباب الموصلة إلى ذلك.

هذه حقيقة التوكل اعتماد القلب على الله - عز وجل - في جلب المصالح ودفع المفسد مع فعل الأسباب الشرعية أو الحسية الموصلة إلى ذلك،

والتوكل عبادة لا يجوز صرفها لغير الله: ولهذا قال هاهنا:

وعلى الله: أي لا على غيره فقدم الجار والمجرور للحصر

وعلى الله فتوكلوا: يعني اعتمدوا وفوضوا أموركم جميعها إليه - سبحانه وتعالى -

"إن كنتم مؤمنين": فدل ذلك على أن توحيد الله بالتوكل من شرط الإيمان دل على أن توحيد الله بالتوكل من

شرط الإيمان

﴿ فنستفيد من ذلك: - ﴾

- أولاً: وجوب التوكل على الله - عز وجل -؛ وأنه عبادة لا يجوز صرفها لغيره فمن صرفها لغيره فقد وقع في الشرك الأكبر

- نستفيد ثانيا: أن التوكل من أعظم أسباب القوة والنصر؛ لأن هذا قيل لهم بين يدي فتح وجهاد - نستفيد
ثالثا: أن التوكل شرط في صحة الإيمان لا يصح الإيمان بانتفائه هذا

واعلموا - يارعاكم - الله: أن اعتماد الإنسان على غيره ينقسم إلى قسمين

◆ الاعتماد على الغير ينقسم إلى قسمين:-

(١) النوع الأول: أن يعتمد على غيره فيما لا يقدر عليه إلا الله فهذا شرك أكبر لمنافاته للتوكل

(٢) النوع الثاني: أن يعتمد على غيره فيما يقدر عليه ذلك الغير فهذا جائز مباح لأنه استنابة

مرة أخرى الاعتماد على الغير نوعان:

- نوع الأول أن يعتمد على غيره فيما لا يقدر عليه إلا الله كأن يقول اعتمدت عليك في شفاء ابني فهذا شرك أكبر لا يجوز صرف هذا إلا لله تعالى،
 - النوع الثاني أن يعتمد على غيره فيما يقدر عليه ذلك الغير كأن يستنبيه في بيع وشراء وإجارة وعقد نكاح ونحو ذلك فهذا النوع مباح وجرت به العادة وصح شرعا
- فالنوع الأول توكل، والنوع الثاني وكالة أو توكيل

فالتوكل لا ينقسم:

التوكل عبادة لا تنقسم كما أن السجود لا يمكن أن نقسمه إلى سجود عبادة وسجود غير عبادة كذلك التوكل لا ينقسم بخلاف الأمور الأخرى مثل الخوف والحب فإنها تنقسم كما قسمنا لكم آنفا أن من الحب ما يكون طبعيا، ومن الخوف ما يكون طبعيا لكن التوكل لا يدخل في القسمة

- التوكل كله عبادة لا يجوز صرفه لغير الله - عز وجل -،

- وأما التوكيل والوكالة فهذا لم يزل في الناس حتى قال بعضهم:

الناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

فلم يزل الناس يقضي بعضهم مصالح بعض، ولم يزل الناس يتخذون الوكلاء نيابة عنهم، ولم يزل الفقهاء - رحمهم الله - يعقدون في كتب الفقه باب الوكالة فالتوكيل والوكالة مشروع لأنها استنادة

وقد ذكرنا لكم أثناء شرح الأصول الثلاثة مسألة طرحت على ساحة الشيخ محمد بن إبراهيم - رحمه الله - في قول بعض العامة توكلت عليك يا فلان في كذا ويذكر أمرا من الأمور المقدور عليها فأجاب - رحمه الله - هذا شرك

أما التوكيل فيجوز لأنه استنادة ففرق بين التوكل وبين التوكيل، وسأل أيضا عن قول بعض العامة متوكل على الله ثم عليك فأجاب هذا شرك وإنما يقول موكلك ولا يقول موكل الله ثم موكلك فإن هذه عامية وليست في محلها لا حاجة في أن يقول موكل الله ثم موكلك يقول موكلك لا حرج لكن التوكل لا يكون إلا الله - عز وجل -، وقد علق ابن القاسم - رحمه الله - تلميذ الشيخ على هذه المسألة فقال:

والفرق بين هذا وبين أعوذ بالله ثم بك لأنه يجوز أن يقول الإنسان أعوذ بالله ثم بك الفرق بين هذا وهذا أنه يجوز الاستعاذة بالمخلوق مفردا فيما يقدر عليه بخلاف التوكل فإنه كله عبادة كما لا يجوز أسجد لله ثم لك أو أعبد الله ثم أعبدك يا فلان كذلك لا يجوز أن يقول أتوكل على الله ثم عليك أرجو أن يكون هذا واضحا وبه يتبين أن التوكل عبادة مفردة خالصة لا تنقسم، أما مطلق الاعتماد فإنه وقع فيه التفصيل فما كان فيما لا يقدر عليه إلا الله فهو التوكل الذي لا يكون صرفه إلا الله، وأما ما كان فيما يقوم به العباد فإن هذا يكون سائغا إذا كانوا أهلا لذلك، أما لو وكل عاجزا فيما لا يقدر عليه فهذا نلحقه بالنوع الأول كما لو قدرنا أن أحدا سأل غائبا وقال يا فلان وكلتك في كذا وكذا وهو غير حاضر فهذا نلحقه بالشرك لأنه يدعو غائبا ويعتمد على غائب لكن لو قال لشخص حاضر أمامه وكلتك أن تبني لي هذا الحائط وكلتك أن تستخرج لي صكا شرعيا بملكية هذه الأرض فهذا لا بأس به

ثم ثنى المصنف - رحمه الله - بقول الله: (إنما المؤمنون) اصغوا يا مؤمنين يقول:

◆ (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين

يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا)

حرى بكل مؤمن ومؤمنة سمع هاتين الآيتين أو الثلاث أن يتدبر لأن الله صدر هذه الآيات بقوله

إنما: وإنما أداة حصر

وذيلها بقوله أولئك هم المؤمنون حقا: فلينظر أمرؤ في انطباق هذه الأوصاف عليه ليرى أهو داخل الوصف أم

خارجة ومحله منه هذا هو معيار الإيمان الكامل

(إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) اعرض هذا على قلبك هل أنت إذا ذكر الله وجل قلبك؟

ما معنى وجلت قلوبهم؟ خافت هل مجرد ذكر الله - عز وجل - يجلب إلى قلبك الوجل، والخشوع، والهيبة، والخوف أم ذكره وذكر غيره سيان بهذا تتبين أيها الإخوة القلوب وتمايزها،

"وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً": هل إذا تليت عليك آيات الرحمن أمذك ذلك بشعور من الإيمان والسمو واليقين أم أن سماعك لآيات القرآن ولكلام أحد من الناس سواء؟ اسأل نفسك،

"وعلى ربهم يتوكلون": وهذا هو موضع الشاهد هل قلبك في المضائق والأزمات وعند الحاجات يرجع إلى الله تعالى ويركن إلى جنبه أم أنه يلتفت يمنة ويسرة يبحث في طرقات الدنيا وفي الأشخاص، وأصحاب الذوات وغير ذلك من المتعلقات، أين يسافر قلبك في هذه المضائق وعلى ربهم يتوكلون،

"الذين يقيمون الصلاة": هذا هو الوصف الرابع يقيمون الصلاة لم يقل يوأدوا الصلاة وحسب قال يقيمونها أي يؤدونها على وجه الاستقامة

فهل نحن - يا رعاكم الله - نؤدي الصلاة على وجه الاستقامة حينما ينصب أحدنا قدميه في مصلاه ويصوب بصره إلى موضع سجوده أهو يستشعر حقيقة العبادة لله رب العالمين ويرى أنه كشف الغطاء بينه وبين ربه وأنه يناجيه، أم أن أحدنا يصنع ذلك على سبيل العادة والإلف ويدخل في الصلاة ويخرج منها ولم يزد فيه شيء علينا أن نسأل أنفسنا الذين يقيمون الصلاة،

"ومما رزقناهم ينفقون": هل أنت تؤدي النفقة الواجبة عليك من زكاة أو نفقة على ولد أو زوجة أو غير ذلك أم أنك مقصر؟ في هذا الأمر فضلا عن النفقة المستحبة فمن جمع هذه الخصال الخمس فليبشر أولئك هم المؤمنون حقا هذا هو الإيمان الكامل الإيمان الحق،

وبه يتبين - يا رعاكم الله - أن الإيمان درجات فثم إيمان كامل وثم ما دون ذلك،

◊ ولو أردنا أن نصور مراتب الإيمان لقلنا:

- إن أول درجة هي تحقيق أصل الإيمان وهو الحد الأدنى الفاصل بين الإيمان والكفر وذلك بأن يعلن الإنسان شهادة التوحيد أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فمن أتى بذلك معتقدا لمعناها فقد أتى بأصل الإيمان لأنه حينما قال ذلك قاله ملتزما لمقتضاه
- فإن انضم إلى ذلك فعل الواجبات وترك المحرمات فقد أتى بالإيمان الواجب الذي يدخله الجنة كما سأل الرجل النبي ﷺ (أرأيت لو صليت المكتوبات وصمت رمضان... وذكر الواجبات أدخل الجنة قال نعم قال والله لا أزيد على ذلك ولا أنقص ثم ولى فقال النبي ﷺ أفلح وأبيه إن صدق) هذا هو الإيمان الواجب
- فوق ذلك رتبة ثالثة وهي الإيمان الكامل وذلك أن يأتي بأصل الإيمان ويصدقه بفعل الواجبات ويضيف إليه فعل المستحبات، ويدع المحرمات ويدع معها المكروهات فيكون قد أتى بالإيمان المطلق، إذن فرق بين الإيمان المطلق ومطلق الإيمان، الإيمان المطلق هو الإيمان الكامل
- ومطلق الإيمان هو الحد الأدنى منها الذي ليس بعده إلا الكفر

والمؤمنون يتفاوتون في هذه المراتب كما قال ربنا سبحانه وبحمده: (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله)

فالظالم لنفسه هو الذي أتى بأصل الإيمان لكن فرط منه محرمات وترك واجبات،

والمقتصد هو الذي أتى بأصل الإيمان وصدقته بفعل الواجبات وترك المحرمات واكتفى هذا مقتصد،

والسابق بالخيرات هو الذي ضم إلى فعل الواجبات فعل المستحبات والمروآت وترك المحرمات والمكروهات

وخوارم المروءة هذا هو الإيمان المطلق هذا هو الإيمان الكامل

◆ فهذه الآية مناسبة للباب:

لقوله فيها وعلى ربهم يتوكلون فإن فيها توحيد التوكل لله - عز وجل -

◆ ونستفيد منها فوائد:-

- أولا: أن الإيمان يزيد وينقص؛ لقوله: (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا) وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص ليس شيء واحدا كما تزعم المرجئة وكما تزعم الوعيدية فإن طرفي النقيض في هذه

المسألة هما المرجئة والوعيدية وكل منهما زعم أن الإيمان شيء واحد إما أن يوجد كله وإما أن يعدم كله لكن المرجئة تساهلوا في وصفه وتحقيقه لأنهم لا يدخلون العمل في مسمى الإيمان، والوعيدية شددوا في شرطه فجعلوا كل ترك للواجبات وفعل للكبائر محبط للإيمان لكن الإيمان عند الفريقين شيء واحد لا يزيد ولا ينقص، أما أهل السنة والجماعة فهم يعتقدون أن الإيمان يزيد وينقص كما جاء بذلك ناطق الكتاب في ستة مواضع صريحة في القرآن العظيم فالإيمان يزد وينقص

- الفائدة التالية أن أهل الإيمان يتفاضلون فيه ولها صلة بالأولى أن أهل الإيمان يتفاضلون فيه فمنهم المؤمنون حقا ومنهم من دون ذلك الناس في الإيمان يتفاضلون فيه فمنهم المؤمنون حقا ومنهم من دون ذلك أضرب لكم مثلا على دون ذلك أرايتم قول الله - عز وجل - في غير ما آية (فتحرير رقبة مؤمنة) ماذا شرط الله تعالى في الرقبة أن تكون مؤمنة لو لم يجد الإنسان إلا عبدا زانيا سارقا مغتابا نهما ظالما جانبا فأعتقه أتبرا ذمته أم لا باتفاق العلماء تبرأ إذن صدق عليه أنه رقبة مؤمنة ومع ذلك فليس إيمانه كإيمان من وصفهم الله هاهنا ولا كمن وصفهم الله بقوله: (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون)

- نستفيد أيضا أن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان؛ من أين ذلك؟ من قوله "الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون" بل ومن قوله "وعلى ربهم يتوكلون" لأن التوكل عبادة عملية قلبية وإقام الصلاة عبادة عملية بدنية فيها قيام وقعود وركوع وسجود فهذا دليل على دخول الأعمال في مسمى الإيمان خلافا للمرجئة بجميع طبقاتها التي تخرج الأعمال عن مسمى الإيمان

◆ ثم قال المصنف - رحمه الله - وقوله (يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين)

"يا أيها النبي": "يا" كما نعلم أداة نداء لكن لم أتى بأي هنا؟ لكي يتوصل بها إلى نداء المعرف بأل لأنه لا يجوز لغة أن تدخل ياء النداء على المعرف بأل خلافا للعامة عندنا العامة عندنا يتسامحون في هذا فيقولون يا الرجل، يا الواقف، يا القاعد يعني يمكن أن يدخلوا ياء النداء مباشرة على المعرف بأل لكن لغة لا يمكن أن تدخل ياء النداء على المعرف بأل إلا بالوصلة فالوصلة ها هنا هي أل، وأما الهاء فإنها للتبنيبه يا أيها النبي والنبي هنا هو نبينا محمد ﷺ

حسبك الله: ما معنى حسبك الله؟ أي كافيك لأن الحسب هو الكفاية

"حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين": طيب تأملوا معي جيدا هل المراد بقوله حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين هل المراد الله يكفيك والمؤمنون يكفونك أم المراد الله يكفيك ويكفي من اتبعك من المؤمنين؟

الثاني قطعاً هل مستم الفرق بين المعنيين لا يمكن أن يكون المراد حسبك الله وحسبك من اتبعك من المؤمنين لأن الحسب لا يكون إلا الله - عز وجل - الكفاية لا تكون إلا من الله لا يمكن أن يحال النبي ﷺ على المؤمنين في الكفاية بل معنى الآية حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين أي حسبك وحسب أتباعك من المؤمنين فالله يكفيكم يكفيك ويكفي من اتبعك من المؤمنين هذا المعنى المراد قطعاً إذن هذا هو معنى الآية

◆ ومناسبتها للباب ظاهرة

لأن الحسب هو الكفاية التي تستلزم التوكل

◆ وكذلك قوله: (ومن يتوكل على الله فهو حسبه)

يعني عليه لا على غيره فهو حسبه أي كافيه وقد جاءت هذه الجملة ضمن جمل نورانية ثقيلة لها وقع عظيم في القلب وهي قول الله تعالى: (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا) جمل عظيمة ثقيلة متلاحقة كل واحدة منها تثبت القلب وقعها في القلب سبحانه الله عظيم (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا) فما من مؤمن يعتره شيء من القلق أو الخوف أو الهم أو الخوف من فوات مطلوب أو نحو ذلك فيقرأ هذه الآيات حتى يطمئن فؤاده ويعلم أن كل شيء بيد الله دواء ناجع للقلق، والتوتر، والاضطراب، والخوف من فوات الدنيا وغير ذلك فتأملوا فيها إذن فمعنى فهو حسبه أي كافيه ومناسبتها للباب كسابقها

◆ فنستفيد من هاتين الآيتين:-

- وجوب التوكل على الله - عز وجل -

- ونستفيد أيضا فضيلة التوكل وأنه يحصل به المقصود

- وفيه أيضا أن الجزاء من جنس العمل فمن اعتمد قلبه على الله كفاه فالتوكل إذن أيها الإخوان مقام عظيم خلافا لما ادعاه بعض الصوفية من أنه من أضعف مقامات السالكين لا والله بل التوكل من أعظم مقامات

السالكين وسيد المتوكلين ﷺ فعل كل سبب مع توكله على الله - عز وجل - فقد ظاهر بين درعين، ولبس المغفر عليهن وفي هجرته كمن نهارا وسار ليلا، واتخذ دليلا وغير ذلك فالتوكل في الحقيقة هو فعل الأسباب المطلوبة هو في الحقيقة من مقامات العبودية العظيمة الشريفة.

◆ ثم قال وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم عليه السلام حينما ألقى في النار وقالها محمد ﷺ حين قالوا له (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم

الوكيل (رواه البخاري والنسائي

نعم رواه الإمام البخاري في التفسير ورواه النسائي لعله في السنن الكبرى.

فهذا النص في الحقيقة يدل على فقه ابن عباس ودقة ملاحظته فإنه قد جمع بين ما جرى لإمام الموحدين في الأولين وإمام الموحدين في الآخرين:

- بين مقالة إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار قالوا (حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين) فألقى في النار وأثناء نزوله يعرض له جبريل ويقول له يا إبراهيم ألك حاجة فيقول أما إليك فلا وأما إلى الله فبلى، وقال كما أخبر عنه ابن عباس حسبنا الله ونعم الوكيل أي الله كافينا فلا نتوكل على أحد سواه فهو نعم الوكيل سبحانه لأنه هو الذي يفي ويكفي حاجة من توكل عليه،

- وقالها نبينا ﷺ في الآخرين حينما أجلب عليه بعض الناس وقالوا إن قريشا قد جمعوا لكم فاخشوهم نوع من الحرب النفسية كما يقال في لغة العصر والإرهاب وغير ذلك لكن النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين قالوا حسبنا الله ونعم الوكيل " فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء " فهذا جزاء التوكل على الله تعالى

◆ ومناسبة هذا الأثر للباب ظاهرة

لما في ذلك من تفويض الأمور إلى الله وصدق التوكل عليه -

◆ ونستفيد من ذلك أيضا:

- فضيلة هذه الكلمة حسبنا الله ونعم الوكيل مع أن استعمال كثير من الناس لها الآن في غير موضعها بعض الناس يستعملها في موضع الاسترجاع أو في موضع الحوقلة أو في موضع الدعاء كما يقول العامة عندنا فلان

يتحاسب على ابنه يتحاسب عليه يعني يقول حسبي الله عليه يجعلونها في موضع الدعاء مع أن الأصل فيها أنها كلمة توحيدية تدل على مطلق التوكل والاعتماد على الله - عز وجل - لكن إن استعملها الإنسان في مقام معين وفي مناسبة معينة ربما دلت على الدعاء بالقرائن والأحوال المحيطة لكنها في أصلها كلمة مستقلة كما يقول الإنسان لا إله إلا الله يقول حسبنا الله ونعم الوكيل إلا أنها تستدعى

- وهذه فائدة ثانية أنه ينبغي قولها في الكروب والمضائق لأن إبراهيم عليه السلام قالها في كرب وضيق وقالها نبينا ﷺ والمؤمنون كذلك

- وأيضا نستدل بآية آل عمران على زيادة الإيمان ونقصانه لأن الله تعالى قال وزادهم إيمانا وأيضا نستدل على أن الله - عز وجل - قد يجعل فيما يكرهه الإنسان خيرا كثيرا فهؤلاء الذين قد قالوا لهم إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم أليس هذا أمرا تكرهه النفوس بل لكن ماذا جرى فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء فهذا دليل على أن بعض ما يكرهه الإنسان ينقلب إلى ضده وهو من ثمرات التوكل على الله.

◆ لنستمع إلى المسائل..... [قراءة المتن]

فيه مسائل :

- الأولى: أن التوكل من الفرائض.

[الشرح]: لقوله (وعلى الله فتوكلوا) إذن توجه بصيغة فعل الأمر إذ جعله شرطا في صحة الإيمان

- الثانية: أنه من شروط الإيمان.

[الشرح]: لقوله إن كنتم مؤمنين

- الثالثة: تفسير آية الأنفال.

[الشرح]: وهي التي فيها ذكر صفات المؤمنين ومنها قوله (وعلى ربهم يتوكلون)

- الرابعة : تفسير الآية في آخرها .

[الشرح]: لعله أراد تفسير الآية في آخرها (يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) لأنها جاءت في آخر سورة الأنفال

- الخامسة: تفسير آية الطلاق.

[الشرح]: وأما آية الطلاق (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) كل ذلك قد تبين

- السادسة: عظم شأن هذه الكلمة؛ أنها قول إبراهيم ومحمد ﷺ في الشدائد.

[الشرح]: نعم ولنا فيها أسوة حسنة فينبغي للإنسان أن يحتفي بهذه الكلمة وأن يعتصم بها في دعاء ربه - عز وجل - حتى يكشف الله كربته

الباب الذي يليه..... [قراءة المتن]

باب

قول الله تعالى: { أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ }

وقوله: { وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ }

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: " أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر فقال: الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله ".

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: أكبر الكبائر الإشراف بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله " رواه عبد الرزاق

[الشرح]

نعم لا زال المصنف - رحمه الله - يعالج القلوب ويصلحها ويتتبع آفاتنا فلذلك أخرج هذا الباب:

◆ باب قول الله تعالى: (أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) وقوله (ومن يقنط من رحمة ربه إلا

الضالون)

هذه الترجمة مكونة من هاتين الآيتين لأنها معنيان متقابلان:

- أحدهما الأمن من مكر الله،
- والثاني القنوط من رحمة الله معنيان متقابلان وأفتان عظيمنتان تصبيان القلب فوجب تصفية القلب من هاتين الآفتين لمنافاتها لتوحيد الله - عز وجل -

◆ فمناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد

أن الأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله من أعظم الذنوب المنافية للتوحيد وقد تُنافي التوحيد من أصله وقد تنافي كماله الواجب بحسب الدرجة التي بلغها صاحبها

◆ فلننظر في الآية الأولى قول الله تعالى:

"أفأمنوا": هذا استفهام إنكاري يتضمن التوبيخ والنعير،

"أفأمنوا مكر الله": أي أولئك المكذبون للرسول هل آمنوا مكر الله

ما المراد بمكر الله؟

المكر في أصله إيصال العقوبة أو الضرر بطريق خفي من حيث لا يتوقع غيره - هذا في أصله -

لكنه ينقسم إلى قسمين: (ينقسم إلى مكر محمود ومكر مذموم)

- فإذا كان ذلك الضرر يصل إلى مستحقه فالمكر به محمود،
 - وإذا كان ذلك الضرر يصل إلى غير مستحقه فهو مكر مذموم،
- مثال ذلك لو أن إنسانا متحايلا صار يسرق أموال الناس بالباطل ويستدرجهم ويغريهم ويذهب بأموالهم نقول إن هذا ماكر لأنه يضرهم بطريق خفي ويستدرجهم من حيث لا يشعرون حتى يوقعهم في الخسارة فنقول عن مكره إنه مكر مذموم

فلو انتدب له شرطي من الشرطة الجنائية واستدرجه وأغراه بأنه سيعطيه أموالا ليقبض عليه أو ليقبضه في قبضته فإن هذا المكر من قبل هذا الشرطي محمود لأنه أوصل الضرر إلى مستحقه

فالمكر المضاف إلى الله سبحانه لا ريب أنه مكر محمود لأن الله تعالى إنها يمكر بالماكرين كما قال تعالى: (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين)، (ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون)، (إنهم يكيّدون كيّداً وأكيّد كيّداً) ولهذا كان هذا الوصف لا يجوز أن يساق إلا على سبيل المقابلة حتى لا يذهب إلى الوهل وإلى الذهن المعنى المذموم، ولا يجوز الإخبار به عن الله - عز وجل - بإطلاق فيقال عن الله الماكر لا لابد أن يقيد يقال ماكر بالماكرين حتى لا يتبادر إلى الذهن المعنى المذموم، نرجع إلى المقصود قال:

"أفأمنوا مكر الله": إذن مكر الله ها هنا هو استدراجه لهم وأخذهم على حين غرة،

"فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون": الخاسرون أي الهالكون،

◆ وفي المقابل قال تعالى: (ومن يقنط من رحمة ربه)

ما القنوط؟ القنوط هو شدة اليأس واستبعاد الفرج أجارنا الله وإياكم وهي حالة نفسية تعترى بعض النفوس يعبرون عنها أحيانا بقولهم الإحباط والمقصود بالقنوط شدة اليأس واستبعاد الفرج فهذا أيضا من الكبائر العظيمة، قال:

(ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) والضال هو التائه المخطئ لدرب الصواب

◆ إذن قد تقدم ذكر مناسبة هاتين الآيتين أو هذه الترجمة لكتاب التوحيد:

وأن الأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله منافيان لكمال التوحيد الواجب وربما منافيان لأصله إذا بلغا مبلغا عظيما

◆ فنستفيد من هاتين الآيتين:-

- التحذير من مكر الله موجود أخذ الأهبة والاستعداد

- نستفيد أيضا التحذير من القنوط من رحمة الله ووجوب رجائه والتعلق به معنيان متقابلان - ونستفيد أيضا

وجوب الجمع بين الخوف والرجاء في قلبك فربما قال قائل كيف قد نهيتمونا عن الأمن ونهيتمونا عن اليأس فما

معنى ذلك؟ نقول معني ذلك أن تجمع في قلبك بين الخوف والرجاء فأنت تحتاج من خوف الله إلى ما يحجزك عن معصية الله ولا حاجة لك فيما زاد عن ذلك، وتحتاج من رجاء الله ما يطمعك في فضله ويقطع عنك اليأس والقنوط هذه أيها الإخوان معادلة قلبية متيسرة لمن يسرها الله تعالى له فيجمع العبد في قلبه بين الخوف والرجاء خوف يجسه عن معصية الله ورجاء يحفزه إلى طاعة الله والإقبال عليه فحينئذ تستقيم النفس ما هي النفس السوية ما هي النفس السليمة الخلية من الأمراض النفسية؟ هي هذه النفس التي اجتمع فيها خوف ورجاء فتعلقها بالله - عز وجل - فحينئذ تستقر النفس وتطمئن وتذهب عنها مخاوفها ووساوسها وأفكارها السلبية ففي كتاب الله - عز وجل - من التوجيهات أعظم مدرسة وعبادة نفسية تغني عن كثير مما يبحث عنه الناس لدى الأطباء النفسيين وغيرها

ثم قال المصنف - رحمه الله -:

◊ وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ:

سئل عن الكبائر: تقدم معنا كثيرا تعريف الكبائر.

فقال: الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله: ثلاث خصال عظيمة خطيرة:-

الشرك بالله: وهو أعظمها فما عصي الله بذنب أعظم من الشرك وما تقرب إليه بطاعة أعظم من التوحيد،

واليأس من روح الله: والعياذ بالله قطع الرجاء بالله قال يعقوب لبيته: { يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف

وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون }،

"والأمن من مكر الله": يعني الغفلة وعدم المبالاة من استدراج الله تعالى للعبد بالمال والصحة والجاه وغير

ذلك

هذا الحديث الذي رواه ابن عباس مرفوعا حديث قد اختلف العلماء في ثبوته:

- فحسنه جمع من العلماء فمن حسنه العراقي و السيوطي وقد رواه أولا رواه البزار لأن الشيخ - رحمه الله -

لم يذكر له تخريجا هاهنا:

فنقول في تخريجه: رواه البزار والطبراني وابن أبي حاتم وقال البزار رجاله موثوقون أو رواه موثوقون، وكما

أسلفت قد حسنه العراقي و السيوطي

إلا أن ابن كثير - رحمه الله - قال في إسناده نظر والأشبه أن يكون موقوفا

وعلى كل حال لا ريب أن معناه صحيح وأن هذه الخصال من الخصال التي جاء الشارع بالتحذير منها و
النكير على من يقع فيها

◆ قال: وعن ابن مسعود قال (أكبر الكبائر الإشراف بالله والأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله واليأس من
روح الله).

هو بمعنى ما سبق إلا أنه ذكر القنوط واليأس وهما بمعنى متقارب هما بمعنى متقارب، قال:

رواه عبد الرزاق الصنعاني - رحمه الله - : وهذا الحديث صحيح وقد جزم ابن كثير - رحمه الله - بهذا قال هو
صحيح إليه بلا شك يعني صحيح إلى ابن مسعود بلا شك، وقد رواه أيضا ابن جرير والطبراني والحديث صحيح
وكلا الحديث المرفوع والموقوف كلاهما مقبول،

◆ ومناسبتها للباب ظاهرة ويستفاد منها:-

- تحريم الأمن من مكر الله واليأس من روح الله

- ونستفيد منها أيضا أن الشرك بالله أعظم الذنوب على الإطلاق أعظم الكبائر

- ونستفيد أيضا أن العبد ينبغي أن يجمع بين الخوف والرجاء أن العبد يجب أن يجمع بين الخوف والرجاء.

◆ لنستمع إلى المسائل..... [قراءة المتن]

فيه مسائل :

- الأولى: تفسير آية الأعراف.

[الشرح]: نعم تفسير آية الأعراف وهي قول الله تعالى: (أفأمنوا مكر الله) في شأن المكذبين لرسله

[قراءة المتن]

- الثانية: تفسير آية الحجر.

[الشرح]: وهي قوله: (ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) في سياق الآيات عن إبراهيم عليه السلام

[قراءة المتن]

- الثالثة: شدة الوعيد فيمن أمن مكر الله.

[الشرح]: نعم فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون

[قراءة المتن]

- الرابعة: شدة الوعيد في القنوط.

[الشرح]: ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون، وكذلك ما رواه ابن عباس وما ذكره ابن مسعود والله أعلم؛